القيادة بالعلاقات الإنسانية

أ. حامد بن صالح الفاجح

مـن سعادتي أن أستذكر أوقاتاً عشتها مـع أخ عزيز ومسؤول كبير له أثره في الميدان التربوي العربي، هوالأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الرشيد (أبو أحمد) وقد بدأت العمل بمكتب التربية العربي لدول الخليج مع أول مدير عام المكتب سمو الأمير خالد بن فهد بن خالـد عام ١٩٧٨م في مرحلة التأسيس، وكان عددنا لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة وبمقر صغيـر فـي شارع الجامعة بالملز، وقمنـا بإعداد الخطة متوسطة المـدى الأولى للمكتب، وقدمناهـا للمؤتمـر العام لوزراء التربيـة والتعليم الذي عقد فـي البحرين عام ١٩٧٩م.. وفي هذا المؤتمر تم تعيين الدكتور محمد بن أحمد الرشيد مديراً عامّاً للمكتب، ومن هنا بـدأ العمـل التنفيذي للمكتب.. فإن كان عهد سمو الأمير خالـد بن فهد هو عهد التأسيس والإعـداد، فـإن عهد أبي أحمد هو الانطلاق في كل شيء بدءاً بمقر جديد واسع في شارع الستيـن، حيث أدخل الحاسـب الآلي، وأنشأ مطبعة كبيرة، وطـور البرامج والمشروعات، ودعـم المكتب بخبرات بشرية حتى وضـع المكتب في مكانة عالمية تخطى بها المنظمات الإقليميـة والعربية.. عرفته جيداً، فقد كنت في معيتـه في كثير من المؤتمرات والأنشطة العالميـة، وكان أخاً عزيزاً ناصحاً محبّاً للخير.. أعطاني الثقة كاملة، ومثلته في كثير من المناسبـات، وكان يدفـع بي للأمام، ويقول: مـا دمت معي ستقوم مقامـي في أي لحظة، وتديـر الاجتماعـات.. وهكذا كان، فقد علمنـي أن أكون دائماً في جاهزيـة ومستعدّاً لأي سؤال أو موقف طيلة السنوات التسع الجميلة التي قضاها في المكتب، وزاملته فيها.

وقد كان عهد أبي أحمد في المكتب هو عصر ازدهار المكتب بحق، فقد أتعب من جاء بعـده؛ لصعوبة مجـاراة إبداعاته، وفي الوقت نفسه سهل عليهـم الطريق ليحذوا حذوه،

المستشار الأول مدير البرامج بمكتب التربية العربي لدول الخليج (سابقاً).

وينفـذوا خططـه وأساليبه، وكان المكتـب أشبه بخلية نحـل يرتاده المفكـرون والمبدعون والعلمـاء في جميـع المجالات وعلى رأسهـا المجال الديني، فعند انتقالنـا للمبنى الجديد في شارع الستين كان اختياره الأول لمكان مناسب يتوافر فيه (مصلى) للموظفين، وكلفني بالإعـداد والتنفيذ لعقد لقاءات بين عمداء كليات الشريعة وكليات القانون بجامعات الدول الأعضاء من أجل التقريب بين هذه الكليات وإزالة ما بينها من اختلاف، وكان لقاءً حماسيّاً ناقش تدريس بعض مواد القانون في كليات الشريعـة، والعكس أيضاً. بعد مراجعتي لبعض كتب كليات المعلمين في إحدى الدول الأعضاء سابقاً وجدت فيها أخطاء شرعية خطيرة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.. فمثلاً كلمة (المؤمنون) تبدل إلى كلمة (المسلمون).. (الكافـرون) إلـى (المشركون)، وهكذا كثيـر، وبعد إشعـار أبي أحمـد بالموضوع اشتاط غضباً، وأرسل الملاحظات في برقية عاجلة إلى وزير تلك الدولة الذي بدوره رد عليه ببرقية طويلـة يشكره فيهـا على توضيحه وملاحظاته، وفي تطوير تدريـس التربية الإسلامية دافع عـن المشـروع حتى تم إقراره فـي آخر مؤتمر شارك فيـه بالكويت، إضافة الـى إصدارات المكتـب فى كتـب الأحاديث الصحيحة (سنـن أبي داود وابن ماجـه والنسائي والترمذي) التـي صححها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمـه الله، في عمل مرجعي مميز، لاقى استحسان واهتمام المجتمع العربي والإسلامي من خلال استمرار طلبها من المكتب.

وعنـد مرافقتي له بزيارة المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) في باريس لتوقيع الاتفاقية بين الطرفين ألقى أبو أحمد خطاباً مهمّاً أمام مدير عام المنظمة أحمد مختار أمبو، كان له أثر كبيرٌ لدى المجتمعين، حيث إنه جاء في وقت مقاطعة بعض الـدول الكبرى لليونسكو لمواقفها الإعلامية الجيـدة، ولأن أبا أحمد يرى أن الإعلام من أخطـر الوسائـل المتاحة وأهمها تأثيراً في الـرأي العام ودوره في العمليـة التربوية رأى عقـد ندوة بعنوان «ماذا يريد التربويون مـن الإعلاميين؟» في الرياض التي تمت برعاية صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز رحمه الله وبحضوره ووزير الإعلام فى المملكـة د. محمـد عبده يماني رحمه الله وكبار المسؤولين فـي التربية والإعلام والفكر من الوطن العربي.

ولاتـزال مجلداتهـا وأفكارهـا متيسرة فـي المكتـب للباحثين، وتـمّ التخطيط لعقد اجتمـاع مشتـرك بين وزراء التربيـة ووزراء الإعلام، وتم التخطيط لـه بإتقان إلاّ أنه لم يتـم لظـروف خارجة عن إرادة المكتـب إلا إنه استمرت اللقـاءات المشتركة للمسؤولين فـي الإعلام والتربيـة بشكل دوري، وفـي مجال دعمه للغـة العربية التـي نحبها جميعاً، كانـت له جولات مهمة وكثيرة لا يمكن حصرها، ومنها أنه كلفني بالإعداد والتنفيذ لعقد لقاءات لعمداء كليات الطب في الجامعات لمناقشة تدريس الطب باللغة العربية؛ لقناعته بـأن الإنسـان يبدع أكثر بلغتـه الأم، وقمت بذلك، وتم عقد اجتماعـات للعمداء في جدة والكويـت وبغداد، وقد تم عرض تجارب عربيـة وأجنبية عن تعليم الطب باللغة الأم، وتم التركيـز على إيجاد مراكز متقدمة للترجمة، إضافة إلى برنامج تعليم اللغة العربية لغير الناطقيـن بهـا القائم إلى الآن في المكتب، وتشتري كتبـه المدارس الأجنبية فى منطقة الخليـج وخارجهـا، وكذلك مقالاته المتعـددة الأسبوعية في الصحافة عـن حماية اللغة العربيـة.. ولأبي أحمد نقاط مضيئة متعددة ومتنوعة فـي الإدارة والعلاقات الشخصية، فقد عاش صادقاً وصريحاً، ولم يداهن أحداً حول الحقيقة، وكان وطنيّاً من الطراز الأول يحب وطنـه وقيادته، ويشيد بذلك في المناسبات المحليـة والعالمية، ومن صفاته أنه لا يتقبـل الكلام المسيء عن الآخرين، وخاصة في غيابهم، وكان يؤكد على فلسفة الحلم.. والعمـل على تحقيقـه حتى يصبح الحلم واقعاً، وقد عمل بـكل جهده لتكون هناك جامعة مشتركـة لدول الخليج، فكانت (جامعة الخليج العربـي) في البحرين.. وللتاريخ بذل أبو أحمـد وسخر جهوده لإنقاذها واستمرارها، عندما تعالت الأصوات لإلغائها، وكاد أن يتم الإلغـاء لولا لطف الله ثم موقفه وتدخل الملك فهد بن عبدالعزيز يرحمه الله وهي حاليّاً منارة في التعليم العالي الخليجي تشهد له بالوفاء.

وفي لحظة ابتعاده عن قيادة وزارة التربية والتعليم، ونحن في المؤتمر العام للوزراء بدولـة الكويـت.. زرته في جناحه بالفنـدق، وقلت له: لقد سألـت الله أن يبارك لك عند تعيينـك وزيـراً، واليوم أسأله سبحانه وتعالى أن يبارك لـك ألف مرة لأنك نسيت نفسك مـع العمل، وحمّلتهـا ما لا تطيق، وكان همك تطوير التعليم، وقـد أديت الأمانة بإذن الله

وتوفيقه كاملة، وجعلت التربية اهتمام كل بيت، حتى أصبح التعليم قضية المجتمع، ويصدق في أبي أحمد قول الشاعر:

وَإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِباراً تَعِبَتْ فِي مُرادِها الأَجْسامُ

وكانت علاقة القائد التربوي الإدارى أبي أحمد مع زملائه في المكتب مبنية على الاحترام والثقة والعمل والإنتاج والتشجيع.. وحتى وهو في الوزارة لم ينسَهم، ودافع عن حقوقهم أمام الوزراء، حتى حصل لهم على نظام التأمينات الاجتماعية، ولاتزال ذكراه عطرة لدى المعلمين والمشرفين والمسؤولين في الدول الخليجية، ويشيدون بجهوده، كلما قابلناهم .

ومن الأعمال الاجتماعية الجميلة التي تحسب له أيضاً دعوته لسفراء دول الخليج ومعاونيهم لسفرة ترويحية إلى القصيم وسدير مدة يومين، ذهبنا بالسيارات إلى هناك، وقابلنا صاحب السمو الملكي أمير القصيم، وأقمنا تلك الليلة في الخيام التي أعدها في البر أحد الأفاضل من القصيم في جو طبيعي وحميمي، وزرنا مدينة المجمعة، وتعرفنا على آثارها، وكانت لفتة كريمة من أبي أحمد تعزز علاقات المحبة بين دول الخليج وتفعيل دور المكتب في ذلك.

وخلال تلك السنوات من العمل واللقاءات اليومية والأنشطة كان لا بد من بعض المواقف الطريفة التي تشعرك بقربه منك، وهي كثيرة أذكر أنني في مهمة تنفيذ برنامج لعمداء كليات الإدارة والأعمال الذي كان بضيافة جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران، وفي السادسة صباحاً يهاتفني أبو أحمد يسأل عن الاجتماع؟، فقلت له: نبدأ الثامنة، والآن السادسة، فقال: أردت أن أطمئن على الأمور، فقد كان متابعاً أولاً فأولاً من الطراز الأول، تتوقع مكالمته في أي لحظة لمتابعة العمل.

مهما تحدثت عن أسلوب أبي أحمد في العمل والتعامل، فلن أوفيه حقه، فقد قال لي في آخر لقاء معه بحب ومودة في مجلسه العامر السبتية: «واصلنا دائماً، ولا

تقطعنـا»، وعبـرت له عن حبـي وتقديري له وحـب الناس وحديثهم عـن إنجازاته داخل المملكة وخارجها.

لاشك أن هذا الحب المتبادل بين أبي أحمد والآخرين كبير جدّاً، خصوصاً من عمل معـه انعكس إيجابيّاً علـى الإنجازات الكبيرة التي تمت، وليبـقَ الحب والوفاء والكرم في قلوبنـا ونفوسنا وأعمالنا، وهو نهج عملي عشناه واقعاً مـع معالي الأستاذ الدكتور محمد ابن أحمد الرشيد جزاه الله خيراً، وأثابه، وجعله فى ميزان حسناته.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل